الثبات والنمو . وهو أمر قد لا نجد له مثيلا في أية رواية . فأبو النحس شخصية ثابتة بالنظر الى افكارها ، وطبيعة تكوينها ، واسلوب انتمائها ، ومواقفها من الاحداث ، ولكنها نامية من حيث تعرفها على ما يحيط بها .

ففي كل فصل ، وكل عنوان ، نجد ان النحس يكتشف شيئا جديدا . قد يتعلق هذا الشيء به هو مثل اكتشافه للكثير من أسرار العائلة . وقد يتعلق هذا الشيء بما هو حوله مثل اكتشافه لكثير من أسرار الرجل الكبير .. ومعلمه يعقوب .. ويعاد .. وباقية .. واخرين . فالشخصية ، اذن ، لا تنحصر ضمن اطارها فقط بل تنعكس على شخصيات كثيرة ، مما يؤكد اعتقادنا بأن أبا النحس شخصية اسطورية ، نرمز الى طبقة من الطبقات ، هي طبقة العملاء الذين تعاونوا ، ويتعاونون مع الاحتلال .

وقد أخلص اميل حبيبي في تصوير شخصيته اخلاصا كبيرا . والذي عمق احساسنا بهذا الاخلاص رفده وقائع القصة بكثير من الاحداث التاريخية الحقيقية ، الموثقة بالتاريخ ، واليوم والشهر والسنة ، ولعل احاديثه عن الانتخابات الاسرائيلية ، وعن حكاية الولد الذي تسبب في غرامته لانه عربي ، وعن السجون ، يثبت ذلك .

ان اتساع شخصية المتشائل ، مع ما رافقها من كشوف ، وسرد لحقائق الواقع في الاراضي المحتلة ، وامتزاج التاريخ بالاسطورة والواقع فيها ، وحركتها الدائمة في ميدان زماني فسيح ، يجعلنا نؤكد ما سبق ان نوهنا به من طابع ملحمي لهذه الرواية ، وهذه الشخصية(١٣) رغم ان شخصية المتشائل سلبية لا ايجابية ، وهنا يتضح عالم المفارقة والسخرية في الرواية .

ثالثا : بالنسبة للنموذج او الايقاع فقد عرف فن الرواية عدة أنواع من النماذج . اولا : طريقة السرد العادي ، وهي أما ان تكون بلسان المتكلم ، واما ان تكون بضمير الغائب . وثانيا : طريقة المذكرات . وثالثا : طريقة الرسائل . ورابعا : طريقة المنولوج او تيار الشعور .

وقد يلجأ الكاتب لاكثر من طريقة من هذه الطرائق. غير أن اميل حبيبي اوصى لنا منذ البداية أنه يكتب روايته على نمط الرسائل . وهذه حقيقة وكدها في ختام الرواية عندما ذكر ان راوي القصة ذهب بنفسه للبحث عن شخصية باعث هذه الرسائل . وظل الكاتب حريصا على تذكيرنا بهذه الحقيقة . ففي مطلع كل كتاب من كتب الرواية الثلاثة يقول : « كتب الي سعيد ابو النحس المتشائل ، قال : » . ثم يستأنف سرده للاحداث. وطبيعي ان يأتي السرد بلسان المتكلم ، لكن ليس هنا موضع الحديث ، وانما نريد ان ننبه الى شيء اخر هو اغتنام الكاتب لفرص كثيرة من اجل اظهار براعته الروائية باستخدام اكثر من طريقة .

فعلاوة على اسلوب الرسائل، وطريقة المذكرات، وجدناه يستخدم التداعي ، وتيار الشعور ، والمنولوج . وهناك صفحات كثيرة يحدث فيها أبو النحس نفسه . وهناك فقرات جمة يذكرها أبو النحس لان شيئا ما ذكره بها . وهناك لحظات يمتزج فيها حلم الشخصية بواقعها . وهذا النسيج الروائي يضيف الى مباهج الرواية شيئا كثيرا يمتع القارىء ، ويشده الى تفاصيلها الدقيقة ، وعباراتها الساخرة .

رابعا : اما الخيال ، فهو اما ان يكون تصويرا لاشياء يمكن تصديقها ، والقبول بامكانية حدوثها ، وهذا النمط يتجلى في كثير من الاعمال الروائية . واما ان يكون خارقا ، لا يصدقه العقل ، ويأباه المنطق . وكان هذا الضرب من التخيل شائعا في قصص الرومانس ، وقصص الفرسان والخوارق. وهو ما سماه فورستر في كتابه : « الاغراق في الخيال » .

وفي النماذج الروائية التي تسير على هذا النهج لا بد من وجود شخصيات ميتافيزيقية ، كالمردة والجان ،والالهة ، وما شابه . وقد اورد فورستر امثلة على وجسود هذا النمط في الروايات المعاصرة(١٤).

ولكن اميل حبيبي يجب ان يعطينا في هذه الرواية مثالا على تحقق النوعين في رواية واحدة . فمن حيث الخيال المعقول فقد تضمنت الرواية تصويرا لاحداث ليست مقبولة فقط ، بل هي احداث حقيقية ، وقعت فعلا ، فضلا عن احداث ممكنة الوقوع ، واضاف — علاوة على ذلك — النمط الثاني من الخيال ، ممثلا بوجود الرجال الفضائيين الذين ينقذون أبا النحس المتشائل عن خازوقه ، ويأخذونه